

المحاضرة العاشرة

الإمبراطورية البيزنطية وأزمة القرن الحادي عشر

الإمبراطورية البيزنطية والحروب الصليبية

العناصر التي تتناولها المحاضرة:

1- نهاية الأسرة المقدونية وقيام أسرة دوкас

- ثيودورا تتولى أمور الحكم (1055-1056م)
- ميخائيل السادس (1056-1057م)
- اسحق الأول كومنين (1057-1059م)

2- أسرة دوкас والانهيال العسكري للإمبراطورية (1059-1081م)

- قسطنطين العاشر دوкас (1059-1067م)
- رومانوس الرابع ديوجينوس (1068-1071م)
- ميخائيل السابع دوкас (1078-1107م)
- نيقفور الثالث (1078-1081م)

3- أسرة كومنين وتجاوز أزمة القرن الحادي عشر (1081-1185م)

- ألكسيوس الأول كومنين والنهوض بالإمبراطورية (1081-1118م)
- الكسيوس كومنين والحملة الصليبية الأولى
- يوحنا الثاني كومنين (1118-1143م)
- مانويل الأول كومنين (1143-1180م)
- الكسيوس الثاني أنجيلوس (1180-1183م)
- اندرونيكوس الأول كومنين (1183-1185م)

مع بدايات عام 1055م، عادت ثيودورا للقصر الإمبراطوري بعد موت قسطنطين التاسع الذي كان قد طردها من القصر، وتسلمت مقاليد الحكم برضا كل فئات الشعب، ووجدت ثيودورا نفسها مسئولة عن رعاية الإمبراطورية وسلامة المواطنين، وهي آخر من تبقى من السلالة المقدونية، وكانت قد تجاوزت السبعين، ولكنها حاولت أن تسير أمور الإمبراطورية، فاهتمت بالعلاقات الخارجية، واستقبلت السفراء، وساعدها على القيام بمهامها أغلب رجال الدولة المحيطين بها، كما لاقت ثيودورا دعما كبيرا من كنيسة القسطنطينية وجميع رجال الدين، غير أنها نظرا لتقدمها في السن، استجابت لمطالب من حولها من رجال القصر، لتعيين من ي خلفها في حكم الإمبراطورية، وظهر في هذه الفترة بوضوح الصراع والتنافس بين الأرستقراطية المدنية والأرستقراطية العسكرية على الفوز بالعرش، غير أن ثيودورا بسبب ميولها لرجال الدين، وقع اختيارها على رجل ينتمي أغلب أفراد أسرته لكنيسة القسطنطينية، وكان هو نفسه قد بدأ الاتجاه للحياة الدينية، فلم تختار ثيودورا رجل سياسي ماهر، وإنما اختارت رجل ورع وتقي هو ميخائيل السادس، وقابل ذلك ردا من الأرستقراطية العسكرية، فمنعت امداد الجيش بالأفراد من العاملين لديهم في الأراضي الزراعية، فقل عدد الجنود بشكل ملحوظ داخل الجيش، وتدهورت أحواله، وفشل ميخائيل السادس في إدارة شئون الإمبراطورية، وأدى الأمر إلى ثورة قادها اسحق كومنين المنتمي للأرستقراطية

العسكرية، وانتهى الأمر باعتزال ميخائيل السادس الحكم، وعاد للحياة الدينية، وتولى اسحق الأول كومنين.

ولم يتمكن اسحق كومنين من تكوين أسرة جديدة، فسرعان ما اشتد النزاع بين الإرسنقراطية المدنية والعسكرية على العرش، ورغم كونه قائد عسكري كبير، وله قدرة على إدارة الأمور الداخلية والدفاع عن الإمبراطورية، إلا أن حكم اسحق كومنين كان مضطرب بسبب ولائه للإرسنقراطية العسكرية من جهة، وبين واجباته كإمبراطور من جهة أخرى، وفي نهاية الأمر وقع الصدام بينه وبين أعوانه بسبب تفضيله مصالح الإمبراطورية، فحد من سلطة الإرسنقراطية العسكرية، وصادر كثير من الأراضي والأموال من كبار رجال الجيش والمدنيين على حد سواء، حتى المؤسسة الدينية لم تسلم من مصادرة الأراضي والأموال، التي وجهها اسحق كلها لإصلاح الأحوال الداخلية للإمبراطورية، ودعم الجيش الذي أهمل لفترة طويلة، ولم يتأثر موقفه من الطبقات الإرسنقراطية رغم الاعتراضات والنقد الذي نال تصرفاته، إلا أن ما كان سبباً رئيسياً في نهاية حكم اسحق كومنين، هو توتر العلاقات بينه وبين كنيسة القسطنطينية، وعلى رأسها البطريرك ميخائيل كليولاريوس الذي تسبب في القطيعة الكبرى مع كنيسة روما.

وكان البطريرك كليولاريوس من أهم الشخصيات التي ساعدت اسحق كومنين على الوصول للعرش، ولذلك كان يرى إحقته في التدخل في شئون الحكم، ورغم أن الإمبراطور اطلق يد البطريرك في التعينات في الوظائف الكنسية، كما وضع تحت يده كل أملاك كنيسة آيا صوفيا، إلا أن البطريرك كان يأمل في أكثر من ذلك، مما أدى للصدام مع الإمبراطور الذي كان يرى ضرورة عودة العلاقات مع باباوية روما، وفي لحظة تهور، اتهم الإمبراطور البطريرك بارتكاب الفاحشة، وهي جريمة كبرى، وقدمه لمحاكمة عاجلة، غير أن البطريرك لم يحتمل ذلك الإتهام، فسقط مريضاً ومات قبل موعد المحاكمة، وكان هذا الحادث نهاية عصر اسحق كومنين، إذ نال غضب كل فئات الشعب، مما اضطره للتنازل عن الحكم لصديقه الذي ساعده في الوصول للحكم وكبير الإرسنقراطية المدنية، وكان يتولى أمور خزانة الإمبراطورية قسطنطين دوكاس.

قسطنطين العاشر دوكاس (1059-1067م):

لم يكن اختيار اسحق كومنين لصديقه قسطنطين العاشر راجع لما ربط بينهما من ود وصداقة فقط، وإنما كذلك لأن قسطنطين كان الوحيد من أسرة البطريرك كليولاريوس الذي يستطيع تولي أمور الإمبراطورية، وكان قسطنطين متزوج من ابنة شقيقة البطريرك الراحل، فكان اختياره نوعاً من التكفير عن الجرم الذي ارتكبه الإمبراطور اسحق كومنين حيال البطريرك الراحل.

كان قسطنطين العاشر رجل اقتصاد ماهر، ولمم بجميع أحوال الإمبراطورية المالية منذ توليه أمور الخزانة، ولذلك أتجه منذ توليه العرش لإصلاح أحوال الإمبراطورية الاقتصادية، ورفع قيمة العملة البيزنطية، وكان في حاجة لأموال لإصلاح أحوال الإمبراطورية، فلجأ لبيع الوظائف الكبرى، وأبعد الطبقة العسكرية عن التدخل في أمور الدولة، فتدهورت أحوال الجيش، وأهمل المؤسسة العسكرية، وشجع هذا أعداء الإمبراطورية، فبدأوا في التقدم داخل أراضيها، وكانت قوة السلاجقة قد بدأت في الظهور، فاجتاحوا أجزاء كبيرة من أراضي الإمبراطورية، وتمكنوا في فترة بسيطة من الإستيلاء على أرمينيا عام 1064م.

رومانوس الرابع ديوجينوس (1068-1071م):

كان قسطنطين مهتما بانتقال العرش لولديه ميخائيل و قسطنطين، فقام عندما شعر بدنو أجله بجمع رجال الدين وعلى رأسهم البطريرك، وكبار رجال الدولة من الوزراء وأعضاء السناتو، في حضور زوجته إيدوكيا، وطلب منها أن تقسم أمام الجميع بالألا تتزوج بعده، وأن تحافظ على العرش لولديها، وإن خالفت ذلك تحق عليها لعنة الكنيسة، وأقسمت إيدوكيا على ذلك، ووقعت على القسم.

غير أن الإمبراطورية كانت محاطة بالأخطار من كل جانب، وأدركت إيدوكيا خطورة الأمر، وضرورة أن يتولى الإمبراطورية قائد عسكري محنك، وإن الإلتزام بالقسم معناه ضياع العرش من أبنائها، فاستخدمت الحيلة لتقنع البطريرك أن يحلها من قسمها الذي كان شاهدا عليه، وبالفعل نجحت في ذلك وتزوجت من رومانوس ديوجينوس، وعادت الأرستقراطية العسكرية تحكم من جديد.

قرر رومانوس أن يكون عند حسن ظن المواطنين، فسارع بتنظيم أمور الإمبراطورية الداخلية، وعمل جاهدا على إعادة بناء قواته، وخرج لملاقاة السلاجقة.

وعندما علم السلطان السلجوقي ألب أرسلان بخروج الإمبراطور بقواته، قرر أن ينصب له كميناً، وحاصر القوات البيزنطية في وادي مانزكرت، فأرسل للإمبراطور يرحوه لقبول الصلح ووقف الحرب، وأظهر رسل السلطان السلجوقي ضعف القوات السلجوقية عن مواجهة الجيش البيزنطي، فرفض الإمبراطور الصلح، وتقدم بقواته نحو وادي مانزكرت 1071م، وكان هذا ما أعد له السلطان السلجوقي، فسارعت القوات السلجوقية بتطويق القوات البيزنطية، واغلقت مخارج الوادي، واحكموا الكمين على الإمبراطور، وفصلوا قوات الإمبراطور عن الجيش الرئيسي، وأرسل السلطان لقوات المرتزقة من الأتراك والتركمان يفاوضهم على ترك الجيش البيزنطي والإنضمام لإخوانهم من السلاجقة، فانفصلت هذه القوات عن الجيش البيزنطي وانضموا لأبناء عمومته من السلاجقة، وانتهى الأمر بأسر الإمبراطور رومانوس، والقضاء على معظم القوات البيزنطية.

واضطر رومانوس الرابع لقبول شروط السلاجقة لإطلاق سراحه، وتعهد بتحرير الأسرى السلاجقة في سجون القسطنطينية، ودفع جزية سنوية، بالإضافة للفدية التي طلبها السلطان السلجوقي لإطلاق سراحه، وكانت هذه المعركة فاصلة لكل من الإمبراطورية البيزنطية والسلاجقة، فقد اطلقت يد السلاجقة في آسيا الصغرى، وتوغلوا في شبه جزيرة الأناضول، واستولوا على عدة مدن كبرى.

ميخائيل السابع دوкас (1071-1078م):

في الوقت الذي كان رومانس الرابع يفاوض السلاجقة على اطلاق سراحه، كان ميخائيل ابن قسطنطين العاشر قد استلم مقاليد الحكم، وانتهى عهد رومانوس بعد اطلاق سراحه لأحد الأديرة بعد سمل عينيه بوحشية أدت إلى نزيه مستمر حتى مات بعد فترة وجيزة.

وبدأ عهد ميخائيل السابع بتدمير الأسطول البيزنطي على يد النورمان، الذين استغلوا فرصة الفوضى في الإمبراطورية، وأسر الإمبراطور رومانوس الرابع، وتشتت القوى البيزنطية، وتقدم النورمان نحو مدينة باري التي كانت قاعدة عسكرية لقوات الأسطول البيزنطي، وتمكنت القوات النورمانية بقيادة روبرت جويسكارد عام 1071م، من تدمير الأسطول البيزنطي والإستيلاء على المدينة، وفي نفس الوقت ازداد زحف السلاجقة على المدن البيزنطية، وحاول ميخائيل السابع تدارك الأمور، فأرسل إلى البابا جريجوري السابع يرحوه مناشدة القوى الأوروبية بحشد قواتهم لمساعدة الدولة البيزنطية في التخلص من السلاجقة، وقد قرر البابا بناء على هذا الخطاب أن يعد بنفسه جيشا كبيرا لملاقاة السلاجقة، غير أنه مات قبل أن يقوم بذلك، ولم يكن ميخائيل السابع امبراطور ملما بكل أحوال الإمبراطورية الداخلية، وافترق لمقومات الحكم، ولذلك انتقلت جميع الصلاحيات تلقائيا ليد كبير الوزراء في الدولة ويدعى نففوريتزس،

الذي عمل على دعم الخزانة الإمبراطورية عن طريق فرض الضرائب التي جمعها بقسوة، وتصادف قسوته في جمع الضرائب، مع سياسة احتكار الحكومة للقمح، بالإضافة لعدد من الكوارث الطبيعية المتلاحقة التي مرت بالإمبراطورية، وكانت الإمبراطورية تفتقر لوجود قوات عسكرية تحميها بعد كارثتي مانزكرت وباري، فاتخذت الإمبراطورية سياسة الدبلوماسية، لتعوض النقص في القوات، ولكن هذه السياسة لم تكن موفقة، وضربت الفوضى أنحاء البلاد، فقام الحزب المعارض بقيادة نففور بوتنتياتس، وهو قائد عسكري لأحد الثيمات الآسيوية، واجتمع المعارضون في كنيسة آيا صوفيا، وأعلنوا نففور بوتنتياتس إمبراطورا، وانتشرت الفوضى في الإمبراطورية، وانسحب ميخائيل السابع إلى أحد الأديرة، واستلم بوتنتياتس مقاليد الأمور.

نففور الثالث بوتنتياتس (1078-1081م):

ولكي يكتسب نففور الثالث شرعية الحكم، قام بعمل جلب عليه سخط المواطنين، إذ تزوج من ماريا زوجة الإمبراطور المخلوع ميخائيل السابع، وتركت هذه الزيجة أثر سيء بين عامة الشعب البيزنطي، فقد كان ميخائيل على قيد الحياة، حتى وإن كان هجر الدنيا إلى حياة الرهبنة، كما خلع ابنه قسطنطين من وراثة العرش وعين أحد أقاربه وليا للعهد، وكان نففور نفسه متقدما في العمر، ولا يقوى من وجهة نظر المحيطين على إدارة أمور الإمبراطورية، وبناء على ذلك باتت الأحوال في الإمبراطورية تتدر بخطر كبير، وقامت عدة ثورات متلاحقة، فلم يستطع نففور الصمود، وكان أحد القادة العسكريين ويدعى ألكسيوس كومنين قد نجح في اخماد عدة ثورات مرت بالإمبراطورية، حتى منحه الإمبراطور لقب الجليل، وقد اصابت الغيرة قواد بوتنتياتس، فاوغروا صدر الإمبراطور عليه، وحاولوا التخلص منه، فقام الكسيوس بتمرد بمساعدة قواته وأسرته وبقياء أسرة دوكاس، وعزل الإمبراطور، وأقام اسرة جديدة هي أسرة كومنين (1081-1185م).

ألكسيوس الأول كومنين (1085-1118م) والتغلب على الأزمة التي مرت بها الإمبراطورية

تولى ألكسيوس كومنين وكانت الإمبراطورية البيزنطية تعاني من الإنهيار السياسي والإقتصادي والعسكري، وواجهته العديد من المشكلات، وتميز ألكسيوس كومنين بأنه كان شخصية منظمة، يدرس خطواته جيدا قبل القيام بها، وكان حريصا منذ توليه العرش على أن يجتاز بالإمبراطورية تلك الفترة العصيبة التي تمر بها، فكان عليه القيام بحل المشكلات الداخلية أولا، ثم الالتفات للسياسة الخارجية.

وبمجرد توليه العرش، قام ألكسيوس بالتبرع بكامل أموال أسرة كومنين لصالح الإمبراطورية، وشجعتة على ذلك زوجته إيرين التي تنتسب لعائلة دوكاس، فتبرعت بأموالها ومجوهراتها لصالح الإمبراطورية، وكانت هذه الخطوة مهمة في اصلاح أحوال الإمبراطورية، وكان يأمل أن تساهم الأسر الأرستقراطية البيزنطية، فبادر بمنح كبار الشخصيات ألقاب تشريفية جديدة، لم تكن تمنح إلا للأسرة الإمبراطورية، فنال بذلك دعم وتشجيع هذه الأسر، وقاموا بالتبرع بجزء كبير من أموالهم لصالح الخزانة الإمبراطورية.

وفي سبيل النهوض بالإمبراطورية، اتخذ ألكسيوس إجراءات جريئة، فصادر أملاك المعارضين له، ودعم خزانة الإمبراطورية بكل هذه الأموال، غير أن ألكسيوس اضطر للوفاء بكل الإلتزامات، أن يخفض قيمة العملة البيزنطية، فأمر بتخفيض نسبة الذهب والفضة في العملة البيزنطية، وكاد هذا الأمر أن يؤدي لثورة، فتمرد الموظفون والعمال على الحصول على رواتبهم بالعملة الجديدة، في محاولة لإجبار الإمبراطور على إعادة قيمة العملة (النوميسما)، فما كان منه إلا أن أمر رئيس الخزانة بوقف المرتبات، مع الإستمرار في العمل، واضطر العمال في نهاية الأمر لقبول الحصول على رواتبهم بالعملة الجديدة.

وكانت أمام الكسيوس مشكلة حماية الإمبراطورية، وكان هذا الأمر في غاية الصعوبة بسبب فقد الإمبراطورية لعشرات الآلاف من الجنود في مانزكرت على يد السلاجقة، والأسطول البيزنطي تحطم في معركة باري مع النورمان، ولم يكن بالجيش سوى بعض الفرق من الجنود المرتزقة، بالإضافة لفرقة (الإمورتال) أو الخالدون، وهم الجنود الذي نجوا من مانزكرت، وكان ميخائيل السابع قد جمعهم في فرقة واحدة لتكون الأساس لإعادة تكوين الجيش البيزنطي، واتخذ الكسيوس بشأن الجيش إجراءات هامة، فقام بتكوين جيش صغير من أبناء الجنود الذين قتلوا في مانزكرت، ووضعهم تحت إشراف فرقة الإمورتال، وتابع بنفسه تدريبهم على شتى فنون القتال، وكان مهتم بأن يتعلم هؤلاء الصغار أساليب السلاجقة في القتال، والتي عرفت بالكر والفر، ولحين تدريب هؤلاء الصغار وتكوين جيش قوي منهم، استعان الكسيوس بالجنود المرتزقة لدعم الجيش البيزنطي، فوقع معاهدة مع روبرت الأول أمير الفلاندرز في عام 1087م، أثناء عودة الأخير من الحج في بيت المقدس، وطلب منه الكسيوس امداده بفرقة من الفرسان تكون مدربة تدريب جيد، وبالفعل أمد روبرت بفرقة مكونة من خمسمائة فارس.

(في نفس الوقت طلب الكسيوس من روبرت أن يرسل له الغرب الأوروبي عدد كبير من الجنود المرتزقة ليدافعوا عن الإمبراطورية البيزنطية ضد هجمات السلاجقة، فوعده بذلك، وبعد عودة روبرت إلى أوروبا، أرسل له الكسيوس خطاب يذكره فيه بوعده بدعم الإمبراطورية بجنود مرتزقة، وهو الخطاب الذي اتخذته الغرب الأوروبي ذريعة لقيام الحروب الصليبية)

وفي أقاليم الإمبراطورية المختلفة، تكونت مجموعة من الفرق كذلك، وكانت نواة لإعادة بناء الجيش البيزنطي، أما بالنسبة للأسطول، فقد بلغ مع بداية عهد الكسيوس أقصى مراحل الضعف، وكان من الصعب العمل على بناء الجيش والأسطول في نفس الوقت، نظرا لما يتطلبه ذلك من أموال، فعوض الكسيوس ذلك بمعاهدة مع البنادقة الذين اشتهروا بمهارتهم البحرية، ورحب البنادقة بتقديم سفنهم وجنودهم لمساعدة الإمبراطورية في مواجهة الأخطار الخارجية البحرية، مقابل أن يمنحهم الإمبراطور امتيازات تجارية واسعة، وفتح أسواق جديدة لهم في القسطنطينية والمدن البيزنطية الكبرى، وإعفاء من الضرائب والمكوس الجمركية، وظل اعتماد الكسيوس لسنوات على أسطول البندقية حتى تمكن من بناء الأسطول البيزنطي.

أما عن السياسة الخارجية، فقد كان الكسيوس يتجنب الدخول في حروب مع السلاجقة بسبب ضعف القوات البيزنطية، كما كان يخشى أن يتحالف السلاجقة والنورمان أعداء الإمبراطورية، ولذلك دخل في عدة معاهدات، مع الغرب الأوروبي للوقوف في وجه النورمان، كما أرسل لسلطان السلاجقة سفارة محملة بالهدايا القيمة مع طلب بعقد معاهدة بين الطرفين في عام 1086م بوقف القتال وتحديد الحدود الفاصلة بين أراضي السلاجقة والإمبراطورية البيزنطية.

أما النورمان، فقد حشدوا قواتهم وحاصروا أهم مدن الإمبراطورية في إيطاليا، وتقدموا نحو الإمبراطورية نفسها، وخرج الكسيوس كومتين بنفسه على رأس قواته لمقابلة روبرت جويسكارد وابنه بوهمند، وتقدم اسطول النورمان لمساعدة الكسيوس، وكانت الحرب مع النورمان تتطلب أموال كثيرة، فأرسل للعاصمة أثناء الحرب يدعو كنيسة القسطنطينية للتعاون معه، وكان يقصد من وراء ذلك أن تقدم الكنيسة ما لديها من أموال لدعم قوات الإمبراطورية، من جهة أخرى قامت زوجته إيرين دو كاس بدور كبير في الدعوة بين الرهبان لتقديم ما لديهم لدعم قوات الإمبراطورية، وكرست وقتها للسعي بين المؤسسات الدينية لهذا الغرض، وبالفعل استجابت الرهبان، بل وخرجن في كل أنحاء الإمبراطورية في حملة لجمع النقود من التجار، ولقت حركة الرهبان استجابة واسعة من التجار.

من جهة أخرى استطاع الكسيوس أن يحدث الفرقة في صفوف النورمان، فحدث انقلاب داخلي على روبرت جويسكارد، ولكن استمر الحرب بين النورمان والإمبراطورية فترة طويلة، تحاول فيها الإمبراطورية وقف الزحف النورماني على أراضيها، حتى أدى كثرة عدد القتلى من الجانبين لانتشار وباء مات فيه أعداد كبيرة من الجانبين البيزنطي والنورماني، وكان روبرت جويسكارد ممن ماتوا بالوباء وتخلصت الإمبراطورية من خطره، في نفس الوقت كانت عناصر جديدة قد بدأت تزحف نحو أراضي الإمبراطورية وتغير عليها، فظهر البوشناق والكومان وغيرهم.

في خلال تلك الأزمات، جدد الكسيوس كومنين النداء لصديقه روبرت الأول أمير الفلاندرز بدعمه بالجنود للدفاع عن الإمبراطورية، وكانت النتيجة قدوم حشود كبيرة من الغرب الأوروبي تحت راية الصليب بهدف حماية الإمبراطورية البيزنطية والاستيلاء على الأراضي المقدسة، وعرفت بالحروب الصليبية.

وفوجيء الكسيوس كومنين بقدوم الحملة الصليبية الأولى للمرور بأراضي الإمبراطورية البيزنطية في الطريق لبيت المقدس، وكانت الحملة تتكون من جزئين، الأول هو طليعة الحروب الصليبية وكان عبارة عن حملة شعبية المكونة من أعداد كبير من عامة الشعوب الأوروبية، جماعات كبيرة غير مسلحة، لا يعرفون فنون القتال، ووقعت مصادمات بينهم وبين المواطنين البيزنطيين، فسارع الكسيوس كومنين بتسهيل عبورهم البسفور، ووفر لهم المواد الغذائية والإمدادات، وطلب منهم البقاء حتى تلحق بهم الجيوش المسلحة، إلا أن هذه الجموع توغلت في أراضي السلاجقة، الذين تمكنوا منهم وقضوا عليهم بسهولة، وحمل الغرب الأوروبي الإمبراطورية البيزنطية المصير الذي آلت إليه حملة العامة.

ثم جاء الجزء الثاني من الحملة، والذي تشكل من جيوش منظمة من كل أنحاء أوروبا، وانتهى وجودهم في القسطنطينية بمعاهدة بينهم وبين الإمبراطور ألكسيوس كومنين، الذي أصر على أن يحصل منهم على يمين الولاء والطاعة، وأمدهم بكافة المؤن التي يحتاجون إليها في رحلتهم، وقرر الاستقادة منهم في إعادة الأراضي التي استولى عليها السلاجقة بعد معركة مانزكرت.

ومنذ وصول الحملات الصليبية وتأسيس الإمارات الصليبية في بلاد الشام، أصبحت تشكل جزء كبير من علاقات الإمبراطورية البيزنطية الخارجية، وانعكست العلاقات بين الإمارات الصليبية في بلاد الشام على العلاقات البيزنطية بالغرب الأوروبي، وكانت سبب في زيادة حدة العداء بين بيزنطة والغرب.

يوحنا الثاني كومنين (1118-1143م):

توفي الكسيوس كومنين تاركا إمبراطورية قوية بعد أن تمكن من إرساء دعائمها، ولذلك عندما تولى ابنه يوحنا، كانت الإمبراطورية مزدهرة اقتصاديا ومستقرة داخليا، غير أنه مع بداية حكمه قابلته مشكلة شقيقته الكبرى أنا، التي كانت ترى في نفسها أكثر حكمة وقدرة من شقيقها على تولي أمور الإمبراطورية، وربما شجعها على ذلك ما خصها به والدها الكسيوس من اهتمام وعطف يفوق كافة أفراد الأسرة، وكانت والدتها إيرين دوكاس تقف إلى جانبها، فحاولت السيدتان التأثير على الكسيوس في فترة مرضه الأخير، ومارسوا عليه ضغوط كثيرة لتسليم خاتم الإمبراطور لأنا وزوجها نيقفور برينيوس، غير أن الكسيوس رغم مرضه الشديد، كان حاضر الذهن ولم يسلم الخاتم إلا لابنه يوحنا، وطلب منه أن يغادر القصر الإمبراطوري سرا مع قادة الحرس الإمبراطوري إلى الهبيدروم، وهناك نادى به القادة إمبراطورا، ورفع الخاتم الإمبراطوري في الساحة، فبايعه الشعب قبل موت الكسيوس الذي مات في نفس الليلة، ولم يصحب يوحنا والده إلى مثواه، عندما علم بمؤامرة شقيقته للتخلص منه أثناء مراسم دفن والده، فقد كانت أنا مصرة على الإستيلاء على العرش، فدبرت مؤامرة للتخلص من شقيقها والمناداة بزواجها

إمبراطورا، غير أن نيقفور برينيوس نفسه كان زاهدا في الحكم، ولذلك أطلع بنفسه يوحنا على تفاصيل المؤامرة، وألتمس منه الرأفة به وبزوجته أنا، فاستجاب يوحنا لرغبة نيقفور، وأكتفى بمصادرة أموال وممتلكات شقيقته وزوجها، بينما لجأت والدته إيرين دوкас إلى أحد الأديرة، وعاشت أنا حياتها في القراءة والاطلاع والتأليف، فكتبت حياة والدها وأعماله في كتاب اسمه الألكسياد نسبة إلى والدها الكسيوس.

(كانت أنا كومنينا مخطوبة في طفولتها لقسطنطين دوкас ابن ميخائيل السابع، وقد وعد الكسيوس بحفظ العرش لقسطنطين، ولذلك كانت أنا كومنينا تعد منذ صغرها لتكون إمبراطورة، وقد تلقت تعليم متميز، وأشركها والدها معه في جميع قراراته وخطته العسكرية وعلاقاته الخارجية، وكانت تعامل ممن حولها على أنها الإمبراطورة القادمة للإمبراطورية، غير أن موت قسطنطين دوкас قبل اتمام الزواج كان محطما لآمالها في عرش الإمبراطورية، فأخذت تبحث لنفسها عن فرصة جديدة للوصول للعرش)

تميز عهد يوحنا باستقرار الأحوال الداخلية، والسلام الذي ساد العلاقات مع السلاجقة، فقد كانت كل من الإمبراطورية البيزنطية ودولة السلاجقة تحتاج لفترة من السلام لإقرار الأمور الداخلية، وكذلك كانت علاقات يوحنا بالإمارات الصليبية في بلاد الشام يسودها السلام، أما عن الغرب الأوروبي، فقد توثقت العلاقات بين الإمبراطور يوحنا، والإمبراطور الألماني كونراد الثالث، وقامت بينهما معاهدات حصل التجار الألمان بمقتضاها على امتيازات واسعة في الإمبراطورية البيزنطية، وزاد من تلك العلاقات المصاهرة التي تمت بين الطرفين، فقد خطب يوحنا أميرة ألمانية لابنه الأصغر مانويل، فأرسل له كونراد برتا، شقيقة زوجته، وكان لبرتا هذه دور في رأب الصدع في العلاقات بين مانويل وكونراد، أثناء مرور الأخير بأراضي الإمبراطورية في الحملة الصليبية الثانية.

كان ليوحنا أربع أبناء هم الكسيوس، أندرونيقوس، إسحق ومانويل، وكان قد عهد بالعرش من بعده لأكبر أبنائه الكسيوس، وفي عام 1142م خرج يوحنا لحملة عسكرية على أنطاكية بسبب تمرد أميرها الصليبي على الإمبراطورية، غير أنه فقد ولديه الكسيوس وأندرونيقوس، فقد مات الكسيوس في بداية الطريق بعد تعرضه لحمى، فأرسل يوحنا جثمان ابنه مع ولديه أندرونيقوس وإسحق لدفنه بالقسطنطينية، إلا أن أندرونيقوس مات في طريق العودة، وعاد إسحق للقسطنطينية لدفن شقيقه، بينما كان مانويل الصغير يصحبه والده في حملته على أنطاكية.

مانويل الأول كومنين (1143-1180م):

في أثناء العودة من حملته على أنطاكية، أصيب يوحنا بسهم مسموم، وعندما أيقن من استحالة بلوغه القسطنطينية وهو على قيد الحياة، منح الخاتم الإمبراطوري لابنه مانويل، وأعطاه الرداء الإمبراطوري القرمزي، حتى يدخل القسطنطينية إمبراطورا، فيجنب الإمبراطورية بذلك الدسائس والمؤامرات التي تصاحب انتقال العرش من إمبراطور لآخر.

ووجه مانويل اهتماما كبيرا بالجهة الشرقية، فنظم العلاقة بين الإمبراطورية وإمارة أنطاكية الصليبية، وتمكن من إعادة ولاء إمارة أنطاكية للإمبراطورية البيزنطية، وخاض عدة معارك مع السلاجقة، وأحرز مانويل تقدما كبيرا على السلاجقة، غير أنه سرعان ما عاد يلتزم حدود الإمبراطورية بعد سقوط إمارة الرها الصليبية في يد عماد الدين زنكي، ومناداة الغرب الأوروبي بحملة صليبية جديدة، هي الحملة الثانية.

لم يكد مانويل يتسلم الحكم ويتوجه لحرب السلاجقة، حتى بدأت طلائع الحملة الصليبية الثانية تشرف على القسطنطينية، وكانت الحملة الثانية تتكون من جيشين كبيرين هما الجيش الألماني بقيادة كونراد الثالث،

والجيش الفرنسي بقيادة لويس السابع، وقد استعد مانويل جيداً لإستقبال الحملة الصليبية، خاصة أن بها صهره الإمبراطور الألماني كونراد الثالث، غير أن الصدام وقع بين الجنود الألمان والمواطنين البيزنطيين، وقام الألمان بأعمال سلب ونهب، وخرّبوا الأسواق، وحرقوا مدينة بيزنطية، فتوترت العلاقات بين الطرفين، وأصبح الصدام وشيكاً بين القوات الألمانية والقوات البيزنطية، وهنا لعبت برتا الألمانية دور هام، إذ أرسلت لكونراد زوج شقيقتها رسالة تحمل مودة، ترجوه أن يقبل الصلح مع زوجها الإمبراطور البيزنطي، وبالفعل آتت سفارة برتا ثمارها، وتم الصلح بين الإمبراطورين، وغادر كونراد إلى آسيا الصغرى، حيث تقابل مع السلاجقة ولقى منهم هزيمة كبيرة، وتشتت القوات الألمانية، وأصيب كونراد نفسه إصابة خطيرة، عاد بعدها للقسطنطينية حتى تم له الشفاء، ثم غادر القسطنطينية لبيت المقدس للمشاركة في الحملة الصليبية الثانية، وفي أثناء عودته للغرب بعد فشل الحملة الصليبية، مر على القسطنطينية بدعوة من مانويل لقضاء أعياد الميلاد بالقسطنطينية، وتمكن الإمبراطوران من تجاوز الأزمة السياسية، غير أن الأخبار التي نقلت للغرب الأوروبي كانت تلقي باللوم على الإمبراطورية البيزنطية لعدم المشاركة في الحملة الصليبية، وتحملها مسؤولية ما تعرضت له الجيوش الصليبية في أراضي السلاجقة، وتعالّت الأصوات في الغرب الأوروبي بضرورة اعداد حملة تأديبية للإمبراطورية البيزنطية، للإنتقام من عرقلتها للجيوش الصليبية، متهمين الإمبراطور مانويل بالتحالف مع السلاجقة ضد الصليبيين.

وعمل مانويل جاهداً على تحسين علاقته بزعماء الغرب الأوروبي، فأرسل السفارات والهدايا ليتجنب قيام حملة ضده، ووجه مانويل حملة لإيطاليا لإسترداد المدن التي استولى عليها النورمان، بالإضافة لتوسعه في حملاته العسكرية في الشرق، فقرر الخروج لحرب السلاجقة عام 1176م، وأعد قواته جيداً، وقسمها إلى ثلاث أقسام ليتمكن من السلاجقة، ولكن السلاجقة علموا بخطة مانويل، فأعدوا خطة مضادة، وعندما تقدم مانويل في أراضي السلاجقة، سرت شائعة في الجيش بموت مانويل، فتفترت قواته، وحاول مانويل جمع قواته فلم يتمكن من ذلك، وكانت النتيجة هزيمة كبيرة في معركة ميروكيفالون.

ألكسيوس الثاني كومنين (1180-1183م):

مات مانويل بعد فترة مرض قصيرة، أكتشف خلالها فشل مشاريعه الكبرى، وترك الإمبراطورية محاطة بالأعداء، وخزانة خاوية بسبب الإنفاق على الحملات العسكرية، ودعم الجيش والأسطول، وترك مانويل طفل صغير تحت وصاية والدته (ماريا الإنطاكية) التي لم تكن جديرة بتحمل أعباء الإمبراطورية، فقامت ثورة بقيادة بطريك القسطنطينية.

أندرونيقوس الأول كومنين (1183-1185م):

تزعم أندرونيقوس الثورة على الإمبراطور الطفل ووالدته، ووثب للعرش بمساعدة المتظاهرين، ومع بداية حكمه، اتخذ أندرونيقوس موقف عدائي من جميع الأجانب الذين ازداد عددهم بالقسطنطينية خلال عهد مانويل كومنين، ونتيجة لسياسة أندرونيقوس العنيفة اضطربت أحوال الإمبراطورية، وانتشرت الفوضى في كل مكان، وقامت ثورة جديدة قضت على أسرة كومنين وتكونت أسرة جديدة هي أسرة أنجيلوس.